الديموقراطية ليست إلا العلم والمعرفة

كلمة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

سيدي صاحب المقام الرفيع ، أصحاب المعالى والسعادة ، سيداتي سادتي :

إذا ذكرت الديمقراطية فأنى أفهم منها أمرين أساسيين لا تستقيم حياة الشعوب والأفراد بدونهما . أما أولهما فهو طموح الشعب إلى أن يعرف نفسه ويتجه إلى ما فيه من قوة ليستزيد منها ، ويستعين بها ، والى ما فيه من ضعف ليتقيه ويتخفف منه ، وأما الثاني فهو جلاء ضمير الشعب أمامه ليرى ما فيه من طموح ونسام وظمأ إلى الحق واحتياج إلى ما ينبغي أن يصل إليه من كمال .. بغير هذين الأمرين لا أستطيع أن أفهم الديموقراطية ، ولا أظن الديموقراطية نفسها تفهم تقسها إلا على هذا الوضع . فالديموقراطية هي أن يفهم الشعب طموحه ، وهى الوسيلة التي يفهم بها الشعب حاجته إلى الحق والعدل والمثل العليا . والديموقراطية في هذا ليست إلا العلم والمعرفة ، فاذا كان هذا حقا ، وأظن انه حق ، فالصلة بين الجامعة والديموقراطية ليست إلا الصلة بين العقل والجسم أو ليست إلا الصلة بين العقل المدبر ، والمادة التي تحتاج إلى من يدبرها .

وعلى هذا الأساس فالديمقراطية تمكن الشعب من أن يتعرف حاجته من العدل ومن الحق ومن الطموح ، وما أظن أن الشعب قادر على أن يستكشف شيئا من هذا ، إذا كان جاهلا

وإذن فأنا لا أغلو إذا قلت أن الديموقراطية لا تبغض شيئا كما تبغض الجهل ، ولا تحب شيئا كما تحب العلم ، وكما تحب المعرفة

سيداتي سادتي :

إن الله لم يختص مصر بخصب أرضها فحسب ، ولكنه اختصها كذلك بخصب النفس المصرية ، فالنفس المصرية كالأرض المصرية معتدلة مستقيمة خصبة قابلة لأن تستقبل ما ينقل إليها من علم ومعرفة ، فيصبح نافعا لها ولغيرها ، وما أكثر النباتات والأشجار التي نقلت إلى مصر فنمت وترعرعت وأزهرت ، وما أكثر المعاني والخواطر وألوان المعرفة التي نقلت إلى مصر فنفعتها واستقرت فيها وأفادت منها مصر ، وأفادت بها غيرها من البلدان

فقد انتقلت إلى مصر في الأزمان القديمة حضارة اليونان فاستقرت فيها ونمت وكانت مصدر نفع للإنسانية كلها ، وانتقلت إلى مصر في العصور الوسطى الحضارة الإسلامية فاستقرت فيها ونمت وكانت مصدر نفع للإنسانية كلها ، وانتقلت إلى مصر في العصور الحديثة الحضارة الأوربية الحديثة فتنمو وتزدهر وهى الآن مصدر نفع للإنسانية كلها . فالنفس المصرية كالأرض والجو والبيئة كلها خصب ونفع ونماء وازدهار ، فاذا كان هذا حقا فقد نقلت إلى مصر في هذا العهد الجديد الذي نعيش فيه شجرة لم تكد تنقل إليها حتى نمت وأثمرت وهى شجرة الديموقراطية .

لم تكد تصل إلى مصر وتستقر فيها حتى أخذت تهدى ثمراتها وهي جلاء ضمير الشعب للشعب وإظهار الشعب على انه في حاجة شديدة جدا إلى أن يتعلم وعلى أن يتعلم بغير انقطاع .

فرقى التعليم في مصر واتساعه وتعمقه إنما هو مقترن بوصول الديموقراطية إلى مصر ، وكلما أحست مصر حياة ديموقراطية صحيحة نقية بعيدة عن النقص أحست رغبتها في أن تتعلم ، وأن تتعلم إلى غير حد .

وإني ألفت حضراتكم إلى هذين العامين الأخيرين ، فلم تكد الديموقراطية المصرية تعود إلى حياتها الطبيعية ، حتى انجلى للشعب ضمير الشعب ، وإذا هو في حاجة إلى أن يتعلم ، وإذا هو يدفع حكومته إلى التعليم والتوسع فيه لا إلى غير حساب بل إلى حد كبير جدا ... وكم أتمنى أن أقول بغير حساب ، فهذه النتيجة هي ما ينبغي أن نصل إليه حتى نحيا حياة ديموقراطية صحيحة

وهنا أذكر لحضراتكم هذه الخصومات بين الديموقراطية والحكومات الديموقراطية ، فالحكومات مضطرة إلى أن تفكر وتدبر وتعمل ، وهى لا تريد أن تتوسع بغير حساب ، ولكن الديموقراطية التي تختلط بدم الشعب ، وهذه الديموقراطية تطلب بغير حساب . وإذا كان العقل مضطرا إلى أن يقرر ويدبر ويحدد ، فان طبيعة الأشياء اقوى وأبعد مدى من العقل ... فاذا وصل إليه العقل اليوم إلى شيء ، فأن طبيعة الأشياء تدعو إلى أكثر مما وصل العقل ، واذا كانت هذه الطبيعة قد دفعتنا إلى التوسع في التعليم فستكرهنا غدا على التوسع جداً ، وقد كان الناس يضيقون بهذا التوسع .

وإذا كانوا ينظرون إليه نظرة امتعاض ، فإني أوكد لكم غير متردد ، أن هذا التوسع ليس الغاية ولا هو النهاية ، ولكنها خطوة بدائية إن كانت قد دفعتنا اليوم إلى تعميم التعليم الابتدائي بالمجان ، فأنها ستدفعنا حتما إلى تعميم التعليم الثانوي بالمجان ، والى تعميم التعليم العالي بالمجان أيضاً ....

ذلك أن الديموقراطية بطبيعتها حريصة على أن يعرف الشعب نفسه ، وعلى أن يعرف واجباته ليؤديها على الوجه الصحيح ، وأن يعرف حقوقه ليحميها من كل اعتداء ، وليحرص عليها غير متردد . ووسيلة الشعب إلى أن يعرف حقوقه وواجباته ويستطيع الحياة المطمئنة التي لا تركد وإنما تنمو وتسمو وتصل إلى الذروة ، وسيلة الشعب إلى هذا هو العلم ، ووسيلة الشعب إلى العلم شيء واحد هو الديموقراطية ، وحاجة الديموقراطية إلى العلم لا تنقضي .

ليس المهم أن ديموقراطيتنا طموحة إلى العلم ، فهذا شيء مقرر ، وإنما يهمنا أن نزيل بعض الأوهام التي تختلط بالمثقفين الممتازين أو غير الممتازين عن علاقة العلم بالديموقراطية أو علاقة الجامعة بهذه الديموقراطية .

فينا مثقفون ممتازون جداً ، بل لقد بلغوا من الثقافة أبعد الحدود ، وهم ، يذهبون إلى أن التعليم الجامعي ينبغي أن يكون محدوداً أشد الحد لأنه نوع من الترف لا ينبغي أن يدفع إليه الشعب دفعا عنيفا ، وإنما يجب أن نقدم عليه محتاطين ، لأن الشعب إذا تعلم تعليما جامعيا ممتازا فقد يطمع فيما ينبغي إلا يطمع فيه ، وقد يفكر فيما لا ينبغي أن يفكر فيه ، وقد يأمل حياة لا ينبغي أن يكون له فيها أمل .

وهم من أجل ذلك يحرصون أشد الحرص على أن يتحد التعليم الجامعي ، ويدعون دائما إلى الاحتياط في نشر هذا النوع من التعليم . ولكن يخيل إلى إن هذه الدعوة أقل ما يمكن أن توصف به أنها خطرة على الديموقراطية والنظام الديموقراطي ، فضلاً عن أنها لا تستقيم مع طبيعة الأشياء . ذلك أن التعليم الجامعي إما أن يكون خيراً وأما أن يكون شراً ، فاذا كان خيرا فالديموقراطية تدعو إلى المساواة فيجب أن يتساوى الجميع في الخير واذا كان شرا فلا ينبغي أن يستأثر بهذا الشر فريق دون سواه ، إنما الواجب أن يتساوى في الشر الجميع .

فهل التعليم خير أو هل التعليم شر ، وأريد التعليم الجامعي؟

أريد أن أجيب كما يجيب الماديون ولا أقصد الماديين في الخلق والدين ، ولكني أعنى الماديين في الاعتبار المعتاد ، الذى يرمى إلى الكسب والخسارة .

أريد أن أجيب كما يحب هؤلاء ولا أجيب كالذين يحبون العلم للعلم ، ولكني أحببت أن أجيب عنه على أساس الكسب والخسارة .

هل بلغت مصر من استثمار مواردها التجارية والصناعية والزراعية ، أقصى ما يمكن أن تطمح إليه ؟ كلا .

هل بلغت مصر من استثمار مواردها هذه أوسط ما يمكن أن تطمح إليه ؟ كلا

إنها لم تبلغ من استثمار مواردها الصناعية والتجارية شيئا ، وهي بعد تتحسس الوسائل التي يمكن أن تستثمر بها هذه الموارد

وإذن فحياتنا المادية نفسها ، هذه الحياة التي تعنى الإثراء وتوفر المال في حاجة إلى أن نفكر فيها ونعمل لها .. فكيف يكون التفكير إذا لم يكن هناك رأس مفكر وهو التعليم العالي ، ولا شيء إلا التعليم العالي ...

قد يقال أن التعليم المتوسط ، أو الأولى أو الثانوي كاف ولكن صدقوني أن هذا كلام يقال ، وأبسط ما يدل عليه أن الذين يقولونه لا يفكرون فيه ، ذلك أن التعليم المتوسط والأولي والثانوي لا يمكن أن يوجد أو ينظم أو يؤتى ثمره القريب أو البعيد إلا إذا اشرف على إدارته وتنظيمه قوم قد بلغوا حظا كبيرا جدا من التعليم العالي . فليس بكاف أن يريد الإنسان شيئا ، ولكن ينبغي أن يكون فاهما ما يريد

فالذين يريدون أن يكتفى بالتعليم الأولى أو الثانوي أو المتوسط ، إنما يريدون ببلادهم ألا يكون لها رأس أو عقل . وليس هذا هو كل ما يوجه إلى الجامعة في البلاد الديمقراطية من اعتراض ، بل يوجه إلى الجامعة والى التعليم العالي انه قد يعني بالنظريات والتفكير الخالص ولا يعنى بالحياة العملية ، وهذا ممكن ولكن في غير البلاد الديموقراطية حيث يتجلى للشعب ضميره ، ويقدر حاجاته ومطامحه

ذلك أن الجامعة ليست صومعة يعكف فيها المتعلمون على علم خالص وإنما الجامعة بيئة للتعليم الذى يمكن طلابه من أن يفكروا تفكيرا مستقيما جليا مرنا واسعا يشمل كل ما يمكن أن يتجه إليه من المصاعب ومن المشقات التي تمس حياة الإنسان النظرية والعملية في وقت واحد ، فاذا رأينا جامعة أفرادها كالرهبان فلسنا في حاجة إلى هذه الجامعة ، وإذا رأينا جامعة تعنى بالعلم لأنه يرقى العقل والحياة نفسها ، ويمكن طالب العلم من أن يكون نافعا لنفسه ولأهله ولأمته كلها عمليا وعلميا فهذه هي الجامعة التي تريدها الديمقراطية ولا نعيش بغيرها .

إذن فالذين يشفقون على مصر أو على الديموقراطية من الجامعة إنما يخطئون فهم الجامعة ، وبظنهم بالشعب نفسه وتقديره لحاجاته ، وأؤكد لكم انه لو وجدت مدرسة تعنى بالعلم من حيث هو علم ، لا من حيث هو وسيلة إلى حياة قوية راقية ، لأعرض الشعب عنها إعراضاً تاماً ، ولبائت هذه المدرسة بالخذلان فلنطمئن إلى أن الشعب يحس حاجاته ويقدرها وله كما قال ديكارت :

ذوق سليم لحاجاته ومطالبه والديمقراطية تقوم على العدل

وأخص ما يمكن أن يتصف به هذا العدل ، هو هذه الفكرة التي ادخلها وزير المعارف في التعليم ، وهي فكرة (تكافؤ الفرص

«تكافؤ الفرص» يعطى كل ما يمكن أن يعطيه للفرد ، وهو لا ينبغي أن يكون مقصورا على لون دون لون من أنواع التعليم . بل لا ينبغي أن يكون مقصورا على لون دون لون من الحياة كلها . وقد وصل هذا إلى التعليم الابتدائي ، وسيصل إلى التعليم الثانوي ثم إلى التعليم العالي ، وغدا أو بعد غد أو منذ اليوم ستتجاوزه إلى فروع الحياه كلها .

سيتيح للعامل الفرصة ليؤتي كل ما يستطيع ليخدم نفسه وأمنه ، ومعنى ذلك أن تكافؤ الفرص الذي أدخل سيعم ويتسع ويصبح مرادفا لما اصطلح عليه الناس في هذه الأيام وهو « العدالة الاجتماعية» .

فحياتنا الديمقراطية ستقوم على تكافؤ الفرص من جهة وعلى العدالة الاجتماعية من جهة أخرى ، وأؤكد لكم أن تحقيق التوازن بينهما ، بين ما يطمح إليه الفرد من حياة هادئة مطمئنة قابلة للكمال وإلى ما يطمح إليه نظراؤه من حياة هادئة مطمئنة قابلة للكمال إلى ما يتوقه

الشعب من حياة هادئة مطمئنة قابلة للكمال . لا سبيل إلى تحقيق هذا التوازن إلا بالعقل المفكر والفكر المدير وهو يتمثل في الصفوف الممتازة في الجامعات والتعليم العالي .

إن هناك قوما يرون قصر التعليم العالي على جماعة دون جماعة فان كل فرد لن يستطيع أن يتعلم تعليما عاليا .. لابد إذن من الاحتياط ومن إبعاد الذين لا تتاح لهم الظروف عن التعليم العالي .. ولكن كيف ومن هم أولا هؤلاء الذين لا تتاح لهم الظروف؟! .

أتصل ذلك بالثروة ! .. لو أن الأمور عقدت بالثروة لكان هذا هو الهدم الصحيح للديموقراطية . أيتصل ذلك بالقوة؟! لو أن الأمور عقدت بالقوة لكان هذا هو الهدم الصحيح أيضا للديموقراطية .. وإذن فهناك ظروف لا تتيح للمصريين جميعا أن يتعلموا تعليما عاليا ، وهذه الظروف يحددها مبدأ تكافؤ الفرص .

هذه الظروف تتصل بقدرة الشاب واستعداد الشاب ، فلا ينبغي أن يرد عن التعليم العالي مصري مهما تكن ظروفه ، وأما ينبغي أن ترد الحياة نفسها ، وترد الجامعة نفسها من لا يمكنه استعداده من المضي في هذا التعلم .

ليس هناك إذن سبيل إلى أن حال في النظام الديموقراطي الصحيح بين الشباب والتعليم العالي إلا أن يكون هذا الشباب غير مستعد لهذا التعليم .

فإذا اتيحت المقدرة للشباب فينبغي أن تفتح في وجوهم أبواب التعليم ليستطيعوا النهوض ببلادهم على أن يبعد التعليم الجامعي والعالي عن اللون النظري الخالص ، فهذا النوع تأباه حاجة البلاد .

ومن الخير أن ألاحظ أن الديمقراطية المصرية قد أخذت تشعر بهذا ، فهي لا تنشئ مدارس إلا على أساس حاجات البلاد وقد أخذت تعرف للتعليم قدره ، وللجامعيين قدرهم ، فأخذت تمكنهم من أن يعملوا على انهم أعضاء كرام في شعب كريم ، وهذا المثل الأعلى الذي أقدمت عليه اليوم ، وما أشك في إنها إن أقدمت عليه هادئة في هذه الأيام ، فأنا جميعا نتمنى أن تتاح لها القوة والنمو بحيث تتمكن من تمكين الشعب لا أن يتعلم فحسب . بل أن يتعلم تعليماً جامعياً ممتازاً .

الوفد المصري ، ٩ يونية ١٩٤٤ .